مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015
المجلد 13 / العـدد: 02 (2023)، ص 262 - 272

نظرية النّظم عند الجرجانيّ وتذوّق النّحو

The theory of systems according to Al-Jurjani and the taste of grammar

خلوفي رقية*
جامعة جيلالي ليابس -سيدي بلعباس
(الجزائر)
rekiarekia21@gmail.com

أ.د. مبارك عبد القادر
جامعة جيلالي ليابس -سيدي بلعباس
(الجزائر)
mobarek_aek@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/08/07 تاريخ القبول: 2023/02/04

ملخص:

يحاول البحث أنْ يُميط اللثام عن النحو البلاغي في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، والذي يعني إخراج النحو من معياريته الشكلية الإعرابية إلى توخي معانيه فيما بين الكلم، دون أن يكون هذا الخروج هدما لقواعد النحو، وإنما إضافة وتيسيرا وتجديدا، وذلك بإعمال العقل والنظر الثاقب المتفحّص، وتحكيم الذوق الناضج، واتباع الحس اللغوي المرهف، والتفاعل مع النصوص بأبعادها التركيبية والوظيفية، لأجل استنباط المعاني الإضافية الجديدة. فيا ترى ما هي نظرية النظم؟ وما علاقتها بالنحو؟ وما الذي أضافته له؟

الكلمات المفتاحية: نظرية النظم; عبد القاهر الجرجاني; النحو; البلاغة; معاني النحو.

Abstract :

The research attempts to remove the ambiguity of the rhetorical grammar in the"theory of systems" according to Abdel-Qaher Al Djurjani, which means taking grammar out of its formality, which is concerned with the end of words and their movements, to consider the meanings of grammar between speech, that is, paying attention to the relationship of words to each other and the resulting new meanings, without this departure to be destruction of grammar rules, it is an addition to it, facilitation and renewal and this is done through the realization of the mind, the careful scrutiny consideration, the arbitration of good taste, follow the feeling, and the interaction with the texts with their structural and functional dimensions, So, what is systems theory? And what does it have to do with grammar? And what did you add to it?

Keywords: systems theory; Abdul Qaher Al-Jurjani; grammar; rhetoric; Grammar meanings.

* خلوفي رقية.

1. مقدمة:

يعدّ عبد القاهر الجرجاني(**ت471هـ**) مُرسِي دعائم "**نظرية النظم**"، التي ربط فيها بين النحو والبلاغة، وأسّس لعلم جديد تمخّض عنهما هو علم "معاني النّحو" أو "نحو المعاني".

ولم يكن الجرجاني مَنْ ابتدع نظرية النظم، فهناك من سبقه إليها، ومهّد الطريق له للبحث فيها،« فقد تحدّث علماء الأدب واللغة عن مسائل كثيرة في الصياغة والنظم، فسيبويه في "الكتاب" يتكلّم عن بعض مسائل النّظم، وكذلك فعل الجاحظ، وابن قتيبة، وقدامة، والآمدي، والقاضي الجرجاني، والباقلاني في "إعجاز القرآن"، وابن رشيق في "العمدة"، وابن شرف القيروانيّ، و غيرهم »[1]، كما« عالجه قدماء اليونان، ومنهم أرسطو في "فن الخطابة"، إذْ سُجِّل التماس نحويّ بين أرسطو والجرجاني، وعالجه الهنود في كتبهم »[2].

إلّا أنّ هذه الطّريق الممهَّدّة ما كانت لتكون سهلة لولا تميّز الرّجل، وتمكّنه من علوم العربية والدّين، فعبد القاهر الجرجانيّ يُعَدّ من خيرة رجال القرن الخامس الهجريّ، خاض في كلّ العلوم، وألّف الدّرر النّفيسة، فقد« صنّف المغني في شرح الإيضاح، المقتصد في شرحه، إعجاز القرآن الكبير والصغير، الجمل، العوامل المائة، العمدة في التّصريف، وغير ذلك »[3].

كما له كتابان من أهمّ الكتب في تاريخ العربية، بهما طارت شهرته وطبقت الآفاق، هما "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، هذا الأخير الذي أُعتُبِر كتابا شاملا لعلوم العربية، فيه بسط عبد القاهر القول في نظرية النّظم، وطبَّق عليها تطبيقات واسعة، لم يسبق لها أحدٌ غيره، فعُدَّ بذلك رائد المنهج التّحليليّ.

2. نظرية النّظم و النّحو:

بدا اهتمام الجرجاني بالنحو- في نظريته- منذ البداية، حين أكّد على أهمية النّحو وفائدته، ودافع عنه أمام الذين يقلّلون من شأنه، وينكرون الحاجة إليه، رغم أنّهم يعلمون« أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتّى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتّى يكون هو المستخرج لها، وأنّه هو المعيار الذي لا يتبيّن نقصان كلام ورجحانه حتّى يُعرض عليه، والمقياس الذي لا يُعرَف صحيح من سقيم حتّى يُرجَع إليه »[4].

ورغم أن الجرجاني قد شاطر هؤلاء الرأي حين ثاروا على بعض فضول النحو التي لا تزيد النحو إلا تعقيدا

ولا تُجدي إلّا كدّا للفكر وإضاعة للوقت كالتمارين العمليّة، إلاّ أنّه رفض منهم عدم إحاطتهم بحقائق ما أقرّوا بصحته والحاجة إليه من مواضيع النحو، وكيف أنّهم لم يتقصّوا معانيها، ولم يخوضوا في تفسيرها وتأويلها، إذْ يخاطبهم معاتبا تقصيرهم هذا، فيقول:« وهل رأيتم إذْ قد عرفتم صورة المبتدأ و الخبر، وأنّ إعرابهما الرفع، أنْ تتجاوزوا ذلك إلى أنْ تنظروا في أقسام خبره، فتعلموا أنّه يكون مفردا وجملة، وأنّ المفرد ينقسم على

ما يحتمل ضميرا له، وإلى ما لا يحتمل الضمير، وأنّ الجملة على أربعة أضرب، وأنّه لابدّ لكلّ جملة وقعت خبرا لمبتدأ من أنْ يكون فيها ذكر يعود إلى المبتدأ، وأنّ هذا الذكر ربّما حذف لفظا وأُرِيد معنى، وأنّ ذلك لا يكون حتّى يكون في الحال دليل عليه؟ »[5].

إذن فمنهج الجرجاني–هنا– هو منهج النّحو الذي يتجاوز أواخر الكلمات وعلامات الإعراب إلى البحث عن الجودة الفنيّة، والتنبّه إلى ما وراء التراكيب من أسرار جمالية لا تقع تحت حصر.

وهذا الكلام لا يعني أنّ الجرجاني قد ألغى القواعد النّحوية،« فمعيارية العربية الفصحى في القضايا الصوتية والصّرفيّة و التّركيبيّة (النحويّة) أمرٌ مقرّر يحفظ لها ديمومتها، وشرط التواصل بين القديم وما يُستحدَث في الآماد المتلاحقة، ولكن الباب الذي وجّه إليه في (دلائل الإعجاز) هو الدرس التطبيقي التحليليّ للكلام العربيّ، فالتركيب تدرس حالاته النّحوية: الترتيبيّة في التّقديم والتّأخير، والتوليديّة بين البسائط بين الجمل والمركبات، والنّظر في العناصر المضافة ودورها، وما يُذكر وما يحذَف، والتّلوينيّة في التّعريف والتّنكير، وفي التقرير والإثبات من طرف والإنشاء بضروبه من طرف آخر »[6].

وعليه يختلف منهج عبد القاهر في بحث موضوعات النحو عن منهج النحاة« كما يختلف في فهمه وتفسيره لهذه الأساليب اختلافا كبيرا، فقد أعطى هذه الموضوعات حياة فقدتها على يد الذين قلّلوا من قيمة النّحو وزهدوا فيه، أو نظروا إليه نظروا ضيّقة تنحصر في الإعراب والبناء »[7].

لقد أفاد الجرجانيّ– بخلاف النحاة–« بما في النحو من إمكانات تركيبية، ووظّفها بشكل مباشر في خلق نظرية لغويّة في فهم الأسلوب، من حيث كان النحو خالقا للنّسق التعبيريّ الذي يحقّق (المزيّة و الفضيلة) بجانب الصّحة والسّلامة »[8].

هذه النظرية اللغوية الأسلوبية هي "نظرية النظم"، التي بنى عليها عبد القاهر كتابه "الدلائل"، وجعلها مناط بحثه واهتمامه، فأخذ– منذ البداية– يُرسي مفهومها بما يقطع الشّكّ فيها وينفي اللُّبس عنها، يقول:« واعلم أنّ ليس"**النظم**" إلا أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم **النّحو**"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك، فلا تُخلّ بشيء منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أنْ ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في "**الخبر**" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "**زيدٌ منطلقٌ**"، و"**زيدٌ ينطلقُ**"، و"**ينطلقُ زيد**"، و"**منطلقٌ زيدٌ**"، و"**زيدٌ المنطلقُ**"، و"**المنطلقُ زيدٌ**"، و"**زيدٌ هو المنطلقُ**"، و"**زيدٌ هو منطلقٌ**"، فيعرف لكلّ من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في "**الحروف**"، التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كلّ واحد منها بخصوصيّة في ذلك المعنى، فيضع كلّا من ذلك في خاص معناه، ويُنظر في "**الجمل**" التي تُسرد، فيُعرَف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ويُتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كلّه، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيُصيب بكلّ من ذلك مكانه،

ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له. هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى "**النظم**"، ويدخل تحت هذا الاسم، إلّا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه أو عُومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له »[9].

ولكي يكون النظم صحيحا وبديعا وجب على كلّ ناظم توخّي معاني النّحو والإلمام بكلّ الفروق التي من شأنها أنْ تكون خفيّة في هذه المعاني، وقد لاحظ عبد القاهر أنّ هذه الفروق قد تخفى على كثير من الخاصّة فضلا عن العامّة، فقد روى حديث الفيلسوف الكندي إلى أبي العباس المبرّد، الذي وجد في كلام العرب حشوا

« فقال له أبو العبّاس: في أيّ موضع وجدتَ ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: "**عَبْدُ اللهِ قَائِمٌ**"، ثُمّ يقولون: "**إِنَّ عَبْدَ اللهِ قَائِمٌ**"، ثُمّ يقولون: "**إِنَّ عَبْدَ اللهِ لَقَائِمٌ**"، فالألفاظ متكرّرة، والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "**عَبْدُ اللهِ قائِمٌ**" إخبار عن قيامه، وقولهم: "**إِنَّ عَبْدَ اللهِ قَائِمٌ**" جواب عن سؤال سائل، وقولهم: "**إِنَّ عَبْدَ اللهِ لَقَائِمٌ**" جواب عن إنكار مُنْكِرٍ قيامَه، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني »[10].

وهذا القانون الذي تنبّه له الجرجاني وقبله المبرد وقبلهما سيبويه وغيرهم من المتقدمين« هو قانون يُثبتُ أنّ الجمل تتعدّد وجوه صياغتها بحسب القصد والحال التي يكون عليها المخاطب والمقام، وقد عرفه هؤلاء عندما عنوا بتعدّد وجوه الكلام لتغيّر العلامات (الحركات الإعرابية)، واهتموا كثيرا بالتمييز بين الأنماط المختلفة للتعبير في حالاته البنيوية المختلفة، أو في حالاته الإعرابية المختلفة، وكان ذلك أكبر دليل على معرفتهم للفروق بين الأنماط المختلفة للبناء الواحد، وعلى الأسرار العجيبة الكامنة في هذا التغيّر، فهذا القانون يفسّر أنّ تعدّد مقاصد المتكلّم تولّد معاني متشعبة دقيقة، وهذه الأخيرة تولّد أنماطا مختلفة في التعبير عنها، وهذا التعدّد في الأنماط ينتج مظاهر وملامح لكثير من القضايا التي يُحرّكها هذا القانون، كتعدّد وجوه الإعراب، والتقديم والتأخير، والاستفهام، والنفي، والقصر والتبعية، وغيرها من المظاهر المتغيّرة في بنية الجملة »[11].

إنّ النظم في جوهره هو النحو في أحكامه، فالناظم يراعي أثناء كلامه قوانين النحو وقواعده المختلفة، كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والفصل والوصل، ومعرفته لهذه القواعد وعدم الإخلال بها شرط أساسيّ لصحة النظم.

ممّا لا شكّ فيه أنّ نظرية النظم عند الجرجاني تقوم على التركيب النحوي في الكلام، حيث نجده ما يلبث يصرح- دائما- باستحالة الاستغناء عن قواعد النحو في تأليف الكلام. مثال ذلك قوله:« ذاك لأنّنا قد علمنا علم ضرورةٍ أنّا لو بقينا الدهر الأطول نُصعِّد ونُصوِّب، ونبحث ونُنقِّب، نبتغي كلمة قد اتصلت بصاحبة لها، ولفظة قد انتظمت مع أختها، من غير أن تُوخِّي فيما بينهما معنًى من معاني النحو، طلبنا ممتنعا »[12].

ويضيف عبد القاهر، مؤكّدا أهمية الإحاطة بالمعايير النحوية، وأنّها هي الأساس الذي يفصل بين النظم الصحيح والفاسد منه، فيقول:« فلا ترى كلاما قد وُصف بصحة نظْم أو فساده أو وُصف بمزيّة وفضل فيه، إلّا وأنت تجد

مرجع تلك الصّحة وذلك الفساد، وتلك المزية إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتّصل بباب من أبوابه »[13].

وسيطرة النحو في نظرية الجرجاني واضحة جدا، حيث نجده يتعقّب الأساليب المختلفة والمعاني الجديدة، التي تنبثق عن تعليق الكلمات بعضها ببعض، وصوغها على نحو خاص، والتي لا يمكن أنْ تغيب إلاّ عمّنْ يفتقر الذّوق السّليم الناضج، والنّظر الثّاقب المتفحص، والحس اللغوي المرهف، كالتقديم والتأخير، والحذف، والوصل والفصل...وغيرها.

ومن الأمثلة التي ساقها عبد القاهر ليبرز ما يصنعه النّحو الإبداعيّ، البيت القائل:[14]

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الحَيّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

يقول فيه:« فإنّكَ ترى هذه **الاستعارة**، على لطفها وغرابتها، إنّما تمّ لها الحُسن وانتهى إلى حيث ينتهي، بما توخّى في وضع الكلام من **التّقديم والتّأخير**، وتجدها قد ملُحَت ولَطُفَت بمعونة ذلك ومؤازرته لها، وإنْ شككت فاعمد إلى الجارّيْن والظّرف، فأزلْ كلًّا منهما من مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: "سالت شعاب الحيّ بوجوه كالدنانير حين دعا أنصاره"، ثمّ أُنظرْ كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة؟ وكيف تُعدَم أريحيَّتُكَ التي كانت؟ وكيف تذهب النّشوة التي كنتَ تجدها؟ »[15].

فها هو **المجاز**- وهو من ضروب البلاغة- قد أخضعه الجرجاني لسيطرة النّحو، إذْ يرى أنّ« الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها، من مقتضيات النّظم، وعنه يحدث وبه يكون، لأنّه لا يتصوّر أنْ يدخل شيْء منها في الكلم وهي أفراد ولم يتوخَّ فيما بينها حكم من أحكام النّحو، فلا يتصوّر أنْ يكون هاهنا "فعل" أو "اسم" قد دخلته الاستعارة، من دون أنْ يكون قد أُلِف مع غيره، أفلا ترى أنّه إنْ قُدِّر في "**اِشْتَعَلَ**" من قوله تعالى:﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾(مريم/04)، أن لا يكون "**الرَّأْسُ**" فاعلا له، ويكون "**شَيْبًا**" منصوبا عنه على التمييز، لم يتصوّر أنْ يكون مُستعارًا ؟ وهكذا السبيل في نظائر "الاستعارة" »[16].

ولتقريب فكرته هذه أكثر، يمكننا الاستشهاد بالمثال الذي تناوله "أحمد درويش" بالشرح والتحليل في ثنايا حديثه عن مفهوم النحو عند عبد القاهر الجرجانيّ وهو:« قول الله تعالى:﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾(البقرة/16)، فحين يتناول الإعراب كلمة "**تِجَارَتُهُم**" سوف يقتصر على كونها تقع في الإعراب فاعلا مرفوعا بضمة ظاهرة، وأنّها مضافة إلى الضمير بعدها، لكن النّظم الذي يقوم عليه علم المعاني، سوف يتناول الأمر من جهة أخرى، وسوف يتساءل عن معنى الفاعلية في كلمة "**تِجَارَتُهُم**"، فما دُمنا نعرف أنّ الفاعل هو الذي يقوم بالفعل، فكيف تقوم التجارة بالربح؟ إنّ التجارة معنى، وليست شخصا يمكن أنْ يربح أو يخسر، أمّا الّذي يربح ويخسر في الحقيقة هو صاحب التجارة، ومن هنا كان من المفروض في التّعبير العادي أنْ يُقال: فما ربحوا في تجارتهم، لماذا أعطى الفاعلية للتجارة؟ هنا ندخل انطلاقا من دائرة المعاني النحوية إلى مبحث الجمال في التّركيب الذي اكتسبته العبارة هنا عن

طريق المجاز، وقد يكون سرُّ استعمال المجاز هنا الإشارة إلى أنّه في مجال التّجارة يكون المال نفسه مقدَّمًا على كلّ شيْء حتّى أنّ صاحبه يتوارى خلفه، ومن هنا فإنّ إعطاء ذلك المال وهذه التجارة معنى الفاعلية، وجعلها هي الّتي تربح أو تخسر، إنّما هو تعبير عن ذلك المعنى النفسيّ عن طريق استغلال المعاني النّحويّة »[17].

ويواصل أحمد درويش توخيه المعاني النحوية في هذه الآية الكريمة، ويُشير إلى« أنّه استعمل كلمة "**تِجَارَتُهم**" مضافة إلى ضمير الغائبين، وقد تكون مهمّة الإعراب هنا أنْ يُبيّن لنا أنّ هذه الإضافة تجعل الضّمير واقعا في محلّ جرّ، ولكن النظم الذي يقوم عليه علم المعاني لابدّ أنْ يتساءل ما الفرق بين أنْ يقول: "فما ربحت تِجَارَتُهم"، وبين أنْ يقول: "فما ربحت التِجَارَة"؟، إنّ الإضافة هنا- و هي معنى نحويّ- قد استغلّت في التّعبير عن معنى نفسيّ، وقد يكون هذا المعنى، هو أنّنا مع ملاحظتنا لاستقلال التجارة استقلالا، جعلنا نعطيها معنى الفاعلية، وهو القيام بالحدث- عند تحليل الفاعل- فإنّنا ينبغي أنْ نلاحظ انعكاس أثر هذه التجارة ربحا أو خسارةً على نفس صاحبها، وأنّ التّعبير الذي يقول: "مَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم" يعكس أثر الخيبة التي تقع على نفوسهم أكثر ممّا يعكسها التعبير الذي يقول: "مَا رَبِحَتْ التِجَارَة"، ولقد جاء ذلك الفرق بين التعبيريْن من فهم الخصائص النحوية، وهي خاصيّة الفاعلية والإضافة هنا، واستغلال هذه الخصائص في مطابقة المعاني النّفسيّة »[18].

وحتّى يوضّح عبد القاهر نظريته، عقد فصولا كثيرة تحدّث فيها عن المعاني الجديدة التي تنبثق عن تعلق الكلمات بعضها ببعض، و صوغها على نحو خاص، فمثلا تحدّث عن **التقديم والتأخير**، وقال في شأنه:« هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التّصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ عن بديعة ويُفضِي بك إلى لطيفةٍ، ولا تزال ترى شعرًا، يروقُك سمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أنْ راقكَ ولَطَفَ عندكَ أنْ قُدِّمَ فيه شيْءٌ، وحُوِّلَ اللَّفظُ عن مكانٍ إلى مكانٍ »[19].

وقد اهتم الجرجاني بهذا الباب- كغيره من الأبواب- لما رأى من تقصير من قبل العلماء في سبر أغواره واستكشاف أسراره البلاغية« فالتقديم والتّأخير لا يأتيان للاهتمام أو العناية- كما سبق أنْ أُثِرَ عن العلماء-

وإنّما يأتيان لتحرير المعنى وضبط الدلالة، وهذا ما اهتدى إليه عبد القاهر الجرجاني، فأخذ يُبيّن ما ينبغي على البليغ أنْ يعرفه من أسرار التقديم والتّأخير، وأنّ ذلك يكون لعلل يقتضيها النّظم ومعانٍ إضافية تستتبع التركيب»[20].

ومن أبين المسائل التي استشهد بها عبد القاهر للدّلالة على المعاني الإضافية، التي يُمكن استنباطها من التّقديم والتأخير، مسألة "**الاستفهام بالهمزة**"، يقول في ذلك:« فإنّ موضع الكلام على أنّك إذا قلتّ:" **أَفَعَلْتَ ؟**" فبدأتَ بالفعل، كان الشّكّ في الفعل نفسه، وكان غرضُكَ من استفهامكَ أنْ تعلَمَ وجوده، وإذا قلتَ: "**أَأَنْتَ فَعَلْتَ ؟**" فبدأتَ بالاسم، كان الشّكّ في الفاعل، مَنْ هو، وكان التّردّد فيه »[21]. ويضرب عبد القاهر لذلك مثلا:« قوله تعالى حكاية عن قول نمرود:﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾(الأنبياء/62)، لا شبهة في أنّهم

لم يقولوا ذلك له- عليه السلام- وهم يريدون أنْ يُقرَّ لهم بأنَّ كسْرَ الأصنام قد كان، و لكن أنْ يُقرَّ بأنّه مِنْهُ كَانَ »[22].

وعن **الحذف**- مثلا- يقول عبد القاهر:« هو باب دقيق المسالك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، فإنّكَ ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدُكَ أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ »[23].

ومثال ذلك: قول عمرو بن معدي كرب[24]:

فَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

« **"أجرّت"** فعل متعدّ، ومعلوم أنّه لو عدّاه لما عدّاه إلَّا إلى ضمير المتكلّم، نحو: "ولكنّ الرماح أجرّتني"، وأنّه لا يُتصوّر أنْ يكون هاهنا شيء آخر يتعدّى إليه، لاستحالة أنْ يقول: "فلو أنّ قومي أنطقتني رماحهم"، ثمّ يقول: "ولكن الرماح أجرّت غيري"، إلَّا أنّكَ تجد المعنى يُلزُمكَ أنْ لا تنطق بهذا المفعول ولا تُخرجه إلى لفظكَ، والسّبب في ذلك أنّ تعديتكَ له توهم ما هو خلاف الغرض، وذلك أنّ الغرض هو أنْ يُثبتَ أنّه كان من الرّماح إجرار وحبس للألسن عن النطق »[25].

ويمضي عبد القاهر في سفره العظيم "الدلائل" يتعقّب الأساليب، ويستقصي المعاني الجديدة، مُوضّحا الفرق بين معرفة قواعد اللغة وأصولها، وبين القدرة على بيان ما فيها من أسرار، نهجه في ذلك النحو، مُسخِّرا أدواته بطريقة فذّة في خدمة البلاغة، ليكشف الستار عن لطائف اللغة ويقف على مواطن الجمال فيها، ويدرك أبعادها ودلائلها، ومقاصدها وأغراضها، وقبل ذلك كلّه أسبابها ودوافعها، فتقديم جزء أو تأخيره أو حذفه أو غيرها من الأساليب والإجراءات لا ترد اعتباطا في نظم الكلام و تأليفه، و إنّما تكون عملا مقصودا يقتضيه غرض بلاغيّ أو داعٍ فنيّ أو بُعد نفسيّ، و هنا يفسح المجال للتذوّق ليفهم المعنى المقصود الذي كان متواريا وراء التعبير.

وعليه –كما أشرنا سلفا- فإنّ منهج الجرجاني هو منهج النحو الذي يتجاوز أواخر الكلمات وعلامات الإعراب إلى البحث عن الجودة الفنية، والتنبّه إلى ما وراء التراكيب من أسرار جمالية و خبايا فنيّة لا تقع تحت حصر، لذلك عُدّ رائد المنهج التّحليليّ بدون منازع، فالجرجاني- وهو يتحدّث عن علم النحو أثناء بسطه لنظريته- قد ابتدع منهجا جديدا في البحث النحويّ لم يسبق له أحد، وكأنه- بطريقة غير مباشرة- قد دعا إلى تجديده، فقد« وصّانا- بطريقة ضمنيّة- أنْ نعدل عن الطريقة التّعليميّة الرّاكدة المألوفة في تعلّم الكلمات وتعلّم النّحو، وصّانا أنْ نفترض أنّ الكلمة نصر مؤقّت على بعض العقبات الافتراضيّة التي ينبغي الاعتراف بها، هذا هو الجدل الكامن الذي خفي علينا زمنًا، هذه العقبات هي التي تُتيح لنا أو للباحثين في الكلام التّعرّض لأسباب الشّكّ والإنكار، وعلى هذا النّحو أُرِيدَ لبحث الكلمات أنْ يكونَ جدليًا ذا طابع سيكولوجيّ معياريّ معًا »[26].

اعتبر الجرجانيّ النّحو مكوّنًا أساسيّا في عقل المبدع متى أنشأ كلاما، فحرّره من قيود القوانين الجافّة، متجاوزا المعيارية الشكلية الجامدة، التي تقتصر على درس أواخر الكلم وكيفيّة ضبطها احتكامًا للقواعد العلمية، إلى ما يُسمّى "بعلم المعاني" أو "معاني النحو"، ليصبح بذلك النحو ذا وظيفةٍ فنيّةٍ وبلاغيّة، به يتمّ الكشف عن الخفيّ من معاني الكلام (المعنى) و(معنى المعنى)،« وبناء على هذا التصور يصبح النّحو عنده صنوَ الحسّ اللّغوي المرهف، وإدراكَ الفروق بين طرائق التركيب ووجوه ترتيب المباني على المعاني، وصنعةً تُدرَكُ بثاقب الفهم والفكر اللطيفة، لا جملة من المصطلحات والأبواب تُحفظ من غير رؤية »[27].

الحقيقة أنّ عبد القاهر قد بثّ بأفكاره هذه روحا جديدة في النّحو، وأعاد له رونقًا ما كان غريبا عنه، بل كان من خصائصه، غير أنّه سُلِب منه حين اهتمّ النحاة بأواخر الكلم فقط، وغفلوا عن تحرّي المعاني الجميلة التي تتأتّى من علائق الكلمات مجتمعة في السّياق الواحد، مرتبة حسب ترتيب المعاني في النّفس أوّلًا.

لقد أبعد الجرجاني- بنظريته في النظم- الجفاف والعقم عن النحو العربيّ، وأعاد له سحره الذي عُهِدَ منه، وأرشده إلى طريقه الصحيحة، التي زاغ عنها، و« انحرف عنها آمادا، وكاد يصدّ عن معرفة العربية وتذوّق ما فيها من قوّة الأداء، ومزيّة في التّصوير»[28]. هذا النحو إذا ما أُخِذَ به، فإنّ النفوس المنفضّة النافرة منه ستتقرّب إليه، وتلتفّ من حوله من جديد، خاصة وأنّ دعوته هذه قد استوفت كل الشروط، فلم تقتصر على التنظير بل دعمها بأمثلة تطبيقية غاية في الأهمية.

إنّ هذا النوع من النحو، أيّ النحو الإبداعي الذي دعا إليه عبد القاهر هو ما نحن بحاجة إليه، وهو ما دعا إلى اعتناقه الكثيرون من أمثال "إبراهيم مصطفى"، حين قال:« ولقد آنَ لمذهب عبد القاهر أنْ يحيا، وأنْ يكون هو سبيل البحث النّحويّ، فإنّ من العقول ما أفاق لِحَظِّه من التّفكير والتّحرّر، وأنّ الحسّ اللّغويّ أخذ ينتعش ويتذوّق الأساليب، ويزنها بقدرتها على رسم المعاني والتأثر بها، من بعد ما عاف الصناعات اللّفظيّة وسئم زخارفها»[29]. فهذه دعوة صريحة إلى فتح باب **لتذوُّقِ النّحو** على طريقة عبد القاهر، لأنّ كثيرًا من دارسي النحو، لا يدركون من النحو إلا جانبه المعرفي باللفظ، أمّا المعاني فالبعد عنها- مع تفاوت في الدرجة- محقَّقٌ حاصلٌ.

3. خاتمة:

نلخص من كلّ ما تقدّم أنّ عبد القاهر الجرجاني استطاع أنْ يأتي بنظرية نقدية متكاملة كفيلة -إذا ما بُسْطَت وشُرِحَت وأُخِذَ بها- أنْ تُبعِدَ الجفافَ عن النّحو العربيّ، وأنْ تُعيدَ له سِحْره، وأنْ تُقرِّب إليه النفوس من بعد ما انفضّت من حوله.

تلك النظرية هي **"نظرية النظم"**، التي حاول صاحبها من خلالها تخليص النحو من الصعوبات التي طرأت عليه، وإزالة الغموض الدخيل عليه، فبحث في النحو وتعمّق فيه بكل جوانبه، ودقّق في مسائله، وتعقب أساليبه، واستقصى معانيه، ليجد أنّ الخلل لا يكمن فيه، وإنما يكمن في منهج النحاة، الذين حصروه في الإعراب والبناء

(الصناعة اللفظية)، وغفلوا عن تحرّي المعاني الجميلة التي تتأتّى من علائق الكلمات بعضها ببعض في سياق واحد، مرتبة حسب ترتيب المعاني في النفس أولا، والتي لا يمكن أنّ تغيب إلّا عمّن يفتقر الذوق الناضج السليم والحس اللغوي المرهف والنظر الثاقب المتفحص، فابتدع بذلك منهجا جديدا يتجاوز أواخر الكلمات وعلامات الإعراب، إلى البحث عمّا يتوارى خلف تراكيبه من معان جديدة وأسرار جميلة لا عدّ لها ولا حصر، فبث بفكرته هذه روحا جديدة في النحو، وأعاد له رونقه الذي سُلِبَ منه، واستحق عن جدارة أنْ يكون رائد المنهج التحليليّ.

4. الهوامش:

[1]- محمد عبد المنعم خفاجي: الأسلوبية..والبيان العربيّ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1992، ص68.

[2]- مبارك عبد القادر: نظرية المعنى في الدرس النّحويّ "آفاق المعنى والمنهج"، كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، ط1، 2011، ج1، ص40.

[3]- السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط2، 1979، ج2، ص106.

[4]- عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط5، 2004، ص28.

[5]- المصدر نفسه، ص30.

[6]- عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، تح: محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2007، ص19.

[7]- أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجانيّ "بلاغته ونقده"، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1973، ص60.

[8]- محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية، مصر، ط1، 1994، ص02.

[9]- ينظر: عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص(81...83).

[10]- المصدر نفسه، ص315.

[11]- ينظر: كريم حسين ناصح الخالديّ: نظرية نحو الكلام "رؤية عربية أصيلة"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 2014، ص(108-109).

[12]- عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص320.

[13]- المصدر نفسه، ص83.

[14]- الآمدي: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، تح: ف.كرنكو، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص141./ صاحب البيت: الشاعر سبيع بن الخطيم التيمي.

[15]- عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص99.

[16]- المصدر نفسه، ص393.

[17]- أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1998، ص105.

[18]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[19]- عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص106.

[20]- ينظر: عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، الرياض، السعودية، (د.ط)، 1980، ص143.

[21]- عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص111.

[22]- المصدر نفسه، ص113.

[23]- المصدر نفسه، ص146.

[24]- مطاع الطرابيشي: شعر عمرو بن معدي كرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، ط2، 1985، ص316.

[25]- عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص157.

[26]- مصطفى ناصف: النقد العربيّ "نحو نظرية ثانية"، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد255، 2000، ص34.

[27]- حمادي صمّود: التفكير البلاغي عند العرب "أسسه وتطوره إلى القرن السادس"، السلسلة السادسة: الفلسفة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، العدد21، 1981، ص512.

[28]- إبراهيم مصطفى: إحياء النّحو، القاهرة، مصر، ط2، 1992، ص195.

[29]- المرجع نفسه، ص20.

5. قائمة المصادر والمراجع:

أولا: القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

ثانيا:

1. الآمدي: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، تح: ف.كرنكو، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.
2. إبراهيم مصطفى: إحياء النّحو، القاهرة، مصر، ط2، 1992.
3. أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة، القاهرة، (د.ط)، 1998.
4. أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجانيّ "بلاغته ونقده"، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1973.
5. حمادي صمّود: التفكير البلاغي عند العرب "أسسه وتطوره إلى القرن السادس"، السلسلة السادسة: الفلسفة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، العدد21، 1981.
6. السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط2، 1979، ج2.
7. عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، الرياض، السعودية، (د.ط)، 1980.
8. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط5، 2004.
9. عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، تح: محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2007.

10. كريم حسين ناصح الخالديّ: نظرية نحو الكلام "رؤية عربية أصيلة" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 2014.

11. مبارك عبد القادر: نظرية المعنى في الدرس النّحويّ "آفاق المعنى والمنهج"، كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، ط1، 2011، ج1.

12. محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية، مصر، ط1، 1994.

13. محمد عبد المنعم خفاجي: الأسلوبية..والبيان العربيّ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1992.

14. مصطفى ناصف: النقد العربيّ "نحو نظرية ثانية"، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد255، 2000.

15. مطاع الطرابيشي: شعر عمرو بن معدي كرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط2، 1985.